عساف ولا يحل الفلسطيني في اللورد لكنه يقدم فلسطينيا خاصا يحب الأرض حسب منطقة ويتوق إليها وفقا لرؤيا معينة تتوافق مع شرطه الاجتماعي وتصوره الفلسفي للعالم .

إن « وديع عساف » في تحدده الثقافي والاجتماعي لا يعيش غربته في المستوى اليومي المباشر ، بل يعيشها على مستوى الوعي ، فهو ليس الفلسطيني اللاهث وراء الرغيف لكنه ذاك الذي يساوي بين المال والحذاء ، لذلك فان فلسطينيته لا يمكن إلا أن تكون انعكاسا لوضعه الاجتماعي والثقافي ، اي أنه يعيش مسألة الأرض في وعيه وتاملاته . يصبح الوطن قضية فلسفية . لقد حقق « وديع » ذاته في كل حقول الحياة ولم يبق أمامه إلا محاورة المطلق والنزوع إلى الكمال الانساني الذي يتجلى في عناق الفن والفلسفة . وفي هذا العناق المثالي يصبح الوطن لحنا وتصبح الأرض منبع إلهام للرسم ويتحول الماضي الى ذكرى تطرح مسالتها في حقل الزمان والذاكرة .

ينزع وديع إلى المغامرة الكونية ، إلى احتضان العالم وتمثل تجارب الوجود ، وتجارب الوجود زاخرة ومنها تجربة الوطن والغربة . والوطن تجربة عبرت وعلى الوعي أن يعيد صياغتها ووضعها في حقول تجاربه كي تصبح مصدر تفلسف وإثراء للوعي : « بعض التجارب يحملها المرء طي إهابه كالمرض . كفرصة لا تميت ولا تندمل . ص : ١٥ » . يرجع هذا المنطق المتسق مع ذاته « مسالة الوطن » إلى تجربة ذاتية ، وبين الوطن ــ القضية والوطن ــ التجربة مسافة شاسعة لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يعرفها ، فلسطيني من نموذج وديع عساف .

يتضمن الوطن / التجربة الفردية نفيا للآخرين وقطعا معهم ، فالشعب الفلسطيني يعيش مسالة سياسية ونضالية ، أما « وديع » الفرد المطلق فيعيش مسالة فلسفية ــ نفسية لذلك فهو يحل « عصابة » في السفر والترحال : « أين يهرب الانسان ؟ فظلت إلى الموج . ص ٩٦ » . يدور الفرد حول تجربته ، والتجربة هي الماضي ، وبين الحاضر والماضي تقف الذاكرة التي تعيد تنضيد العلاقات .

تسكن صورة الوطن وعي « وديع » ، وفي هذا الوعي المغترب عن واقع شعبه تأخذ الصورة تحولاتها ، فهي حاضرة ــ غائبة لكن حضورها غياب لانها لا تحضر ــ كما قلنا ــ إلا على مستوى الوعي . فالوطن حاضر ابدا كذكرى ومجال للتأمل ، والحضور الذكرى يغير ملامح الصورة حتى التلاشي : « إنما الشيء الحقيقي هو ذكراي له . الذكرى تتحول إلى ما يشبه الموسيقى . تبتعد الوقائع عنك في دهاليز الزمن ، وتخلف أمواج النغم في ذهنك . ص : ٢٤ » . الوطن ــ الذكرى علاقة فكرانية تبدأ وتنتهي في محارب الأنا وتستمر وتتطاول دون أن تلمس الواقع أو تقترب منه : « قبل سنين كثيرة كنت شيئا عن أجراس الذاكرة وهي تجلجل في كهوف جوفية ، صامتة صمت الزمن السحيق الذي يلف تاريخ الانسان .... هذا المساء ، والشمس على وشك المغيب ، عبرت بي أحدى تلك التجارب الرؤوية التي يكاد يكون الكلام عنها مستحيلا . ص : ٨٣ » . ينوب الوطن في الوعي وفي حدود التأمل ، لا بل يصبح هما كونيا يضاف إلى الهموم الكونية الاخرى : الموت ، الزمان ، الانتحار ... وهذا يعني أن الوطن بتحديده التاريخي والجغرافي يتزايل وتحل مكانه صورة الوطن كمفهوم فلسفي ــ اخلاقي . والمسالة الفلسفية الميتافيزيقية لا تجد حلها في الواقع بل في حقل الوعي والمقولات الفلسفية .

تتمحور الفردية المطلقة حول ذاتها ، تكتفي بذاتها ، تجمع العالم فيها وتقصي هذا العالم ، ترمز الوطن وتلقيه وراء ستائر الغيب والضباب ، اي يصبح وطنها قائما فيها ، بل